

## مفاتيح البحث العلمي في القرآن الكريم

(\*) د. حمزة حسن سليمان

## مقدمة:

الحمد لله الذي أنعم علينا بالقرآن، وجعله نوراً لنا في ظلمات هذه الحياة، وصلى الله وسلم على النبي الأمي الذي كان القرآن خُلِّقَ وإمامه وشفاءه ونور قلبه، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

يمثل العلم والبحث العلمي وتطبيقاته - بكل نواحيها - دوراً مهماً في تطور ورفاهية المجتمعات، ويمكن اعتبار إجراء البحوث العلمية مقياساً لتقدم الدول ونموها الاجتماعي والاقتصادي والتقني، وهذا يجعلها تتفوق عسكرياً وتكثر مساهماتها الثقافية والعلمية في الحضارة الإنسانية.

وقد شكل الإسلام منذ بداياته الأولى إطاراً مميزاً في هذا الاتجاه، فهو يشمل كل مجالات الحياة الدنيوية والأخروية، حيث يرتبط عضواً بالدولة والسياسة والقانون والمجتمع، ويكتنف الحياة العامة والخاصة، الأمر الذي يجعله إطاراً ملائماً لدفع التنمية الشاملة والمتواصلة.

وتميز الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بتنمية العقل البشري والتركيز على تشجيع الإنسان ليمارس البحث العلمي ويأخذ من التدبر والتفكير والتمعن ديناً لحياته، كما بين الإسلام الدور المهم لمن يعطي للبشرية وينهل من العلم والمعرفة، ورفع من مكانة العلماء والباحثين وذوي الخبرة والتخصص في تطور المجتمعات ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر: (١٤).

ولذلك، وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ العلق: (٥) يمم المسلمون وجوههم شطر العلم والبحث والمعرفة، ونفرت طائفة منهم في شتى البقاع تنشر العلوم وتتبع أهل العلم والخبرة في مختلف التخصصات. وبعد،،، فمعياراً للنظر والاعتبار، وميزاناً للبحث والإفكار، وصقلاً للذهن، وشحذاً لقوة الفكر والعقل جاء هذا البحث-بعنوان: مفاتيح البحث العلمي في القرآن

(\*) أستاذ مساعد بالجامعة ورئيس قسم التنسيق والبرامج والتأليف بالعمادة .

العدد الثاني والعشرون ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

الكريم- لبيان سبق القرآن في مجال البحث العلمي.

#### أهداف البحث:

- (١) خدمة الكتاب والسنة وتوثيق الصلة بهما دراسة وتدبراً وتطبيقاً.
- (٢) تصحيح وضبط مسار الفكر الإسلامي المعاصر وفق الرؤية القرآنية.
- (٣) تأصيل دراسات علوم القرآن من خلال منهجية موحدة ومشاركة.
- (٣) صياغة نظرية متكاملة للمعرفة القرآنية بحسب التخصص.
- (٥) وضع منهجية علمية تكون منطلقاً سديداً لدراسة مناهج البحث في القرآن الكريم.
- (٦) تطوير مناهج البحث باستيعاب ما يستجد في مجال الدراسات القرآنية.

#### الدراسات السابقة:

ألف الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن العاقب كتاباً ضمن سلسلة العلم والإيمان التي يصدرها المركز العالي لأبحاث الإيمان بالسودان بعنوان: في القرآن مفتاح البحث العلمي ولكنه ركز فيه على الجوانب الإعجازية للقرآن في مناحي مختلفة، ماعده لم أقف على مؤلف أو بحث بهذا العنوان، ولكن توجهت عدد من الدراسات والبحوث للوقوف على مقاصد ومشكلات ومعوقات البحث العلمي في جانب من الجوانب، وباختصار شديد من هذه الدراسات والبحوث:

(١) واقع البحث العلمي بالجامعات- د.سر الختم عثمان، ورشة البحث العلمي- السودان: ٢٠٠٥م.

(٢) البحث العلمي ونظام التعليم والتنمية في اليمن- نعمان سعيد الأسودي، دور كليات التربية في الجامعات العربية في تطوير التعليم ما قبل الجامعي في الوطن العربي - بيروت ١٩٩٩م.

(٣) معوقات البحث العلمي من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك خالد، حمدان مبارك سعيد وكمال الدين هاشم، مجلة كلية التربية جامعة طنطا- العدد الحادي والثلاثين: ٢٠٠٢م.

(٤) كتاب: مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام- الدكتور عمار الطالبي.

(٥) كتاب: الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي- الدكتور يوسف يعقوب السلطان.

(٦) البحث العلمي في الجامعة المقاصد والمحفزات- الواقع والمطلوب- أ.د. عبد الله الزبير عبد الرحمن- الندوة العلمية: معوقات البحث العلمي- جامعة القرآن الكريم- أم درمان- السودان.

#### خطة البحث:

- المقدمة:** وشملت: الأهداف والدراسات السابقة.  
**المبحث الأول:** وسائل البحث العلمي في القرآن الكريم  
المطلب الأول: العلم.  
القسم الأول: تعريفات ومعان  
القسم الثاني: استعمالات العلم في القرآن الكريم  
المطلب الثاني: العقل.  
القسم الأول: تعريفات ومعان  
القسم الثاني: مكانة العقل في القرآن الكريم  
المطلب الثالث: التفكير والتدبر.  
القسم الأول: معانٍ وحقائق  
القسم الثاني: فوائد وثمرات التدبر  
**المبحث الثاني:** غايات ومقاصد البحث العلمي في القرآن الكريم  
المطلب الأول: تحقيق عبودية الخالق.  
المطلب الثاني: بيان مظاهر قدرة الله تعالى.  
المطلب الثالث: بيان مكانة العلم والعلماء.  
**المبحث الأول:** وسائل البحث العلمي في القرآن الكريم:

### المطلب الأول

#### العلم

#### القسم الأول : تعريفات ومعان :

جاء تحديد العلم في اللغة والاصطلاح في كتاب مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام بقوله: "فالعلم في معناه اللغوي إنما سمي علماً لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وفي الاصطلاح من العسير تحقيقه تحقيقاً يتفق عليه الباحثون في القديم، وفي عصرنا هذا أيضاً، وإن ذهب أبو الحسن اللبان إلى عدم الجدوى من تعريفه لأنه أظهر الأشياء، فلا معنى لحدده بما هو أخفى منه، وإذا تصفحنا اليوم المؤلفات المختلفة، وقرأنا مصنفات المناهج، واطلعنا على المعجمات، فإننا بلا ريب نلقى صعوبة في الوصول إلى تعريف دقيق واضح للعلم، ... لهذا نرى رشارد فريدمان الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٦٦ يقف موقفاً

صريحاً من غموض مفهوم العلم ومعناه فيقول: اشتغلت بالعلم طوال حياتي عارفاً تماماً ما هو، ولكن الإجابة عن السؤال: ما هو العلم؟ هو الأمر الذي أشعر أنني عاجز عنه!"<sup>(١)</sup>.

وقد وردت تعريفات العلم بحيث يصعب حصرها إذ يعرف أصحاب كل تخصص العلم حسب ما يتسق ويتناسب مع تخصصهم، ولما كنا بصدد الحديث عن العلم باعتباره أحد مفاتيح البحث العلمي في القرآن الكريم فالذي يخصنا من هذه التعريفات ما يلي:

فقد جاء في الموسوعة العربية العالمية: " يأتي العلم في القرآن الكريم بمعنى القرآن والسنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٢٠، وقد يأتي العلم مرادفاً للقرآن الكريم حسب تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ يونس: ٩٣، ويأتي العلم بمعنى علم الدين، كما في الآية: ﴿قَالَ الَّذِيكُ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ النحل: (٢٧).

غير أن القرآن الكريم تضمّن أيضاً آيات تشير إلى العلم بمفهوم دنيوي يتصل بمعاش الإنسان، كتعليم الله سبحانه لأدم الأسماء كلها، وتعليم داوود استعمال الحديد، ومن ذلك تعليم الله سبحانه أنبياءه علوماً معجزة كتعليم سليمان منطق الطير، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ العلق: (٥)، إطلاقية في الدلالة تشمل علوماً كثيرة تتصل بمعاش الإنسان وسعيه في الحياة الدنيا. وقد وردت لفظة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم مئات المرات، "ولا غرو إذن أن يرد في القرآن المجيد ما يقارب من ثمانمائة آية تتحدث عن العلم ومشتقاته: علماء، يعلمون، تعلمون... الخ"<sup>(٣)</sup>.

(١) مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام - الدكتور عمار الطالبي (١ / ١)

(٢) الموسوعة العربية العالمية - (٣ / ١)

(٣) الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي - الدكتور يوسف يعقوب السلطان (١٤ / ١)

## القسم الثاني: استعمالات العلم في القرآن الكريم

إن أول آية قرآنية لامست قلب الرسول ﷺ كانت تحثه على العلم وأهميته طلبه، فقال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ العلق: (١-٥)، وكان الخطاب القرآني للنبي الكريم في دعوته للمسلمين إلى العلم غير محصور فقط في دراسات العقيدة والشريعة والآداب والفنون، وإنما يمتد إلى وجوب دراسات العلوم البحتة والتطبيقية الموصلة إلى معارف وحقائق الكون وقوانينه ومظاهره في عمليات متنامية وصولاً إلى منتهى الحقيقة المطلوبة في هذا الوجود وهي توحيد الله ﷻ، الواردة في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۝﴾ محمد: (١٩)، ومن ثم توظيف التخصص العلمي أياً كان مجاله لخدمة العقيدة والدعوة إلى الله" (١).

وجاء في كتاب الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي: "ولما كان العلم أفضل فعاليات الإنسان وأكثر أشكال الحضارة البشرية حضوراً وتمثلاً وأشدّها إيجابية، وإن هذه الحقب المتعاقبة من تاريخ الإنسان وأنشطته ما كان يمكن اقتحامها ومحاولة دراستها إلا بواسطة مناهج للبحث العلمي، فالعلم والبحث العلمي ينتجان من العقل ويمثلان خيراً عميماً متاحاً للجميع، وليس حكراً على فئة دون أخرى" (٢). ولما كان العلم في القرآن ليس قاصراً على العلم الديني أو الأخروي أو عالم الغيب كما يزعم بعض من لم يفهم القرآن ولا تذوق طعمه، فقد استعمل القرآن العلم بمعناه المطلق كما ذكر أبو بكر بن العربي: "استعمل القرآن العلم بمعناه العام الذي يشمل كل علم فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ۝﴾ النحل: (٧٨)، في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتياً أو أزدل العمر: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ۝﴾ الحج: (٥)، وكلمة (شيء) وكلمة (علم) هاهنا نكرتان تفيضان العموم

(١) أبحاث المؤتمر العالمي الثالث للإقتصاد الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة - (١٧ / ١٢)

(٢) الإسلام وتنمية العلم والبحث العلمي - (١ / ٤)

المستغرق لعلم كل شيء. واستعمل في العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية، أي العالم كله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ الروم: (٧)، فهذا العلم الدنيوي مقابل للعلم الأخروي<sup>(١)</sup>.

واستعمل القرآن العلم في علم الحساب والفلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يونس: (٥)، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنۡ ءَاتَىٰهُمۡ مِّنَّا آيَةً لِّتَذَكَّرُوا فَضُلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ الإسراء: (١٢).

وتطبيقاً لنصوص القرآن الكريم الداعية للبحث العلمي في هذا المجال، نطالع مقاله يماني الخولي في فلسفة العلم في القرن العشرين: "... فقد أدى اهتمام الإسلاميين بالرياضيات، وإعلاء شأنها إلى تناميها على أيديهم تنامياً يصعب تفسيره فقط بهذه النظرة الداخلية للنسق المعرفي فثمة عوامل خارجية في الحضارة الإسلامية دفعت إلى هذا، منها اهتمام العرب وأسلافهم العتيق بالتجارة وحساب الأنصبة والأرباح في البضائع والبيوع، ثم نظام المواريث الإسلامي، وأيضاً تعاضم جحافل الجيوش الجرارة وتوزيع رواتبها وغنائمها وحساب نفقاتها، ثم الرخاء الاقتصادي والتراكم المالي الذي تلا تكوين الإمبراطورية الإسلامية، ومشاكل حساب أنظمة الجزية والخراج والضرائب والزكاة، هذا فضلاً عن مشاكل عمليات المساحة وتقسيم الأراضي وتشبيد المدن"<sup>(٢)</sup>.

وعن الفلك فنجد تحديد مواقيت الصلاة والشعائر والأعياد الدينية تدفع الإسلاميين إلى اهتمام مكثف بالفلك، لاسيما وأن البيئة الصحراوية دفعتهم إلى الاعتماد على التقويم القمري بصعوباته في تحديد التواريخ سلفاً، وفي الوقت نفسه اهتموا بالتقويم الشمسي في الأمصار الزراعية التي دانت لهم من أجل تحديد أوقات

(١) العواصم من القواصم- أبو بكر بن العربي- تحقيق عمار الطالبي- دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٢، ص ٣٧١.

(٢) فلسفة العلم في القرن العشرين-يماني الخولي- ديسمبر ٢٠٠٠.. سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٦٤.

جباية الجزية والضرائب والزكاة وفقاً لمواسم الحصاد، والمحصلة أن المسلمين استطاعوا تطوير علم حساب المثلثات، وتصنيع آلات فلكية لتعيين المواقيت والاتجاهات، وكانت من أدوات اكتشاف الأمريكتين وإثبات كروية الأرض، كل ذلك بتطبيقهم لتوجيهات القرآن الكريم الداعية لشحذ الهمم في سبيل الارتقاء بالبحث العلمي.

واستعمل القرآن العلم في معرفة مختلف مظاهر الطبيعة من الماء والسماء والثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام واختلاف ألوانها: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ فاطر: (٢٧، ٢٨)، قال فيها الإمام القرطبي: " هذه الرؤية رؤية القلب والعلم، أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل... ويشير السياق هنا إلى علماء هذه الأشياء المذكورة ونظامها، فازداد هؤلاء العلماء بهذا العلم يقيناً، وأثمر ذلك رهبة وخشية من عظمتها، وعجيب إتقانه، واختلاف ألوان موجوداته، فهو علم وذوق لهذا الجمال في الألوان أيضاً"<sup>(١)</sup>.

واستعمل العلم في القرآن في تعليم الشعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ يس: (٦٩)، وفي تعليم البيان والقدرة اللغوية في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الرحمن: (٤، ٣)، وفي تأويل الرؤيا، فقال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴿٢١﴾ يوسف: (٢١)، وفي تعليم السحر عندما قال: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيَانَ هُرُوتَ وَمُرُوتَ ﴿١٠٢﴾ البقرة: (١٠٢)، وقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿٧١﴾ الشعراء: (٤٩).

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-دار الكتب المصرية - القاهرة- الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م - (١٤ / ٣٤١)

وفي مجالات التقنية الحديثة استعمل القرآن لفظ العلم في تعليم الصناعة في قوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ الأنبياء: (٨٠). وقد أشار القرآن إلى صناعات شتى، مثل صناعة الحديد في الجانب العسكري، والجانب المدني، بقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد: (٢٥)، فقوله: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية، وقد علم الله نبيه داود صناعة الدروع: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ ﴾ الأنبياء: (٨٠)، وقال: ﴿ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۗ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةَ ۗ سَبَأَ ۗ ۝١١﴾، ومثل ذلك: الصناعات الغذائية كما في قوله: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ النحل: (٦٧)، ومنها: الصناعات المتخذة من الأنعام: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا لِّمَنْ حِينِ النَّحْلِ ۗ ۝٨٠﴾، ومنها: صناعات التجميل والزينة: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيٍّ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ ۗ ﴾ الرعد: (١٧)، ومنها: صناعة السفن، وقد أجادها نوح عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا ۗ ۝٢٧﴾، ويصنع الفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۗ ۝٣٨﴾ هود: (٣٨)، ومنها: صناعة البناء وقد تعلمها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهما اللذان بنيا أول بيت وضع للناس: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ۗ ۝١٢٧﴾، ومنها: صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين: ﴿ ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۗ ۝٩٦﴾، ومنها الصناعات



التي علمها الجن لسليمان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِحْفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ سبأ: (١٣).

وجاء استعمال القرآن للعلم في فضيلة العلم الذي يجب أن يتصف به القائد السياسي والحربي، بقوله جل شأنه: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ البقرة: (٢٤٧). قال القرضاوي: "والعلم هنا يحدده السياق والمقام، وهو العلم بشؤون الحرب والفنون العسكرية، وإدارة المعارك، ونحوها مما تتطلبه القيادة الحربية"<sup>(١)</sup>.

واستعمله في علم الاقتصاد الذي يؤدي إلى الغنى وكسب الأموال والكنوز، كما قال تعالى على لسان قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص: (٧٨)، أورد السيوطي قوله فيها: "أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: علم الله أني أهل لذلك"<sup>(٢)</sup>، وقال الطبري: "قال قارون لقومه الذين وعظوه: إنما أوتيت هذه الكنوز على فضل علم عندي، علمه الله مني، فرضي بذلك عني، وفضلني بهذا المال عليكم، لعلمه بفضلي عليكم"<sup>(٣)</sup>.

وجاء استعمال العلم في القرآن الكريم في تعليم آدم أسماء الأشياء، أي القدرة العقلية على وضع الأسماء للأشياء ومعرفة حقائقها، فقال في ذلك: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ البقرة: (٣١). قال ابن كثير في تفسيره لها: "هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفعل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به

(١) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم - (١ / ٧)

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور - عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - المحقق: مركز هجر للبحوث -

الناشر: دار هجر - مصر - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م - (١١ / ٥١٠)

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري - تحقيق:

أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م - (١٩ / ٦٢٦)

عليهم في العلم" (١). وقال تعالى في نفس هذا الاتجاه: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النمل: (١٥).

وفي تفصيلات أخرى استعمل القرآن العلم في تعليم كلاب الصيد والجوارح: ﴿ تَعَلَّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ المائدة: (٤)، وفي علم منطق الطير، عندما قال على لسان سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ النمل: (١٦)، قال فيها الإمام البيضاوي في تفسيره: "تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظام ما أوتيته" (٢).

وفي استعمال القرآن الكريم للعلم في كل هذه المجالات يتبين لنا - دون أدنى شك - سبق دعوة القرآن للبحث العلمي في المجالات كافة، وأنه وضع منهاجاً قوياً، وفتح آفاق العلماء والمفكرين للبحث في هذه المجالات التي تطرق لها في معرض دعوته لضرورة أخذ العلم النافع الذي تسعد به الأمة وتستفيد منه الملة. وعلينا أن ندرك بأن الإسلام هو الدين الذي أرسى المفاهيم الأساسية وحث على التزود من العلم والنهل من المعرفة للتيقن بأن وراء هذا الكون خالق صمد ولخدمة البشرية، وفي ذلك يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:  
**وقيمة المرء ما قد كان يحسنه \*\*\* والجاهلون لأهل العلم أعداء  
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً \*\*\* فإلناس موتى وأهل العلم أحياء**

## المطلب الثاني

### العقل

#### القسم الأول: تعريفات ومعان:

اختلف العلماء في تعريف العقل وحقيقته اختلافاً كثيراً، ولعل أجمع وأدق

(١) تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي -المحقق: سامي بن محمد سلامة-دار طيبة للنشر والتوزيع-الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م- (١ / ٢٢٢)  
(٢) تفسير البيضاوي - ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي- دار الفكر - بيروت- (٤ / ٢٦١)

ما قيل فيه قول الإمام الغزالي ومن وافقه بعدم إمكان حده بحد واحد يحيط به، لأنه يطلق بالاشتراك على خمسة معان: "أحدها: إطلاقه على الغريزة التي يتهبأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية وتدبير الأمور الخفية. والثاني: إطلاقه على بعض الأمور الضرورية، وهي التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. والثالث: إطلاقه على العلوم المستفادة من التجربة، فإن من حنكته التجارب يقال عنه أنه عاقل، ومن لا يتصف بذلك يقال عنه غبي جاهل. الرابع: إطلاقه على ما يوصل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور، بقمع الشهوات الداعية إلى اللذات العاجلة التي تعقبها الندامة، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً. والخامس: إطلاقه على الهدوء والوقار، وهي هيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه، فيقال: فلان عاقل، أي عنده هدوء ورزانة"<sup>(١)</sup>.

ولخص ابن تيمية المعنى اللغوي والشرعي للعقل أحسن تلخيص فقال في الفتاوى: "العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً، يراد به القوة التي يعقل بها، وعلوم وأعمال تحصل بذلك، وهو علم يعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً من عرف الشر فطلبه والخير فتركه"<sup>(٢)</sup>.

ولم تُستخدم كلمة العقل في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة لتشير إلى عضو التفكير مطلقاً، كما لم ترد كلمة العقل على المصدرية في القرآن الكريم، وإنما استُخدمت الكلمة بصيغة الجمع على: يعقلون، وتعقلون، ونعقل، وعقلوه، ويعقلها، وذلك في تسع وأربعين موضعاً، ولم ترد بصيغة الماضي إلا مرة واحدة، ووردت في باقي المواضع بصيغة الحاضر أو المستقبل.

وجاء في المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: "والمعنى المستفاد من هذه الصيغ غالباً هو لفت الانتباه للتفكير من أجل إدراك العاقبة واتخاذ خطوة نحو العمل، وهو بذلك يكون في معناه أوسع من مجرد التفكير، فنحن إذا فكرنا ننتج الفكرة، أما إذا عقلنا فنندرك ما وراء هذه الفكرة من أبعاد متعلقة بالتصديق والعمل، فالسمة الأساسية للعقل وفق اصطلاح الكتاب والسنة هي إدراك العاقبة المنشودة

(١) انظر: المستصفى في علم الأصول-محمد بن محمد الغزالي أبو حامد- دار الكتب العلمية - بيروت.

الطبعة الأولى، ١٤١٣

(٢) مجموع الفتاوى- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني -المحقق: أنور الباز -

عامر الجزار-الناشر: دار الوفاء-الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م- (١ / ٢٤٤)

والعمل لها والثبات على ذلك" (١).

ومما سبق من آراء العلماء في تعريفهم للعقل يمكن أن نخلص إلى تعريف جامع لهذه الآراء بأن العقل: غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده تابعة للروح موضوعة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان لا نعرف كيفيتها، ولكن نتعرف على وجودها ووجود أوصافها من أفعال الإنسان في ظاهر البدن، فيقال هذا عاقل إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ الحج: (٤٦)، فالآية تدل على أن العقل موجود في القلب، قال الثعالبي في الجواهر الحسان: "هذه الآية تقتضى أن العقل في القلب وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ" (٢).

### القسم الثاني: مكانة العقل في القرآن الكريم:

من الوسائل التي دعا لها القرآن لسبر أغوار البحث العلمي استعمال العقل للوقوف على قدرة الله تعالى في الكون والتفكر في مخلوقاته، وأكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيبته وحكمته ورحمته، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤، يلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه، كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام: ﴿ ذَلِكَ ذِكْرُكَ وَصَنَعْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام: ١٥١، وكرر قوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أكثر من

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام - (١٤ / ١٠٢)

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف

الثعالبي - مؤسسة الألمي للطبوعات - بيروت - (٣ / ٣٥)

عشر مرات كأمر لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يونس: ١٦، وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: ١٠، وفي معناه قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَقْلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقوله في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ الحج: (٤٦)" (١).

وكدليل على اهتمام القرآن الكريم بالعقل ورفع شأنه ومكانته نرى اهتمامه المتعاطف ودعوته المستمرة لرفع شأن العقل وتكوين عقلية مستقلة تضع الأمر موضع الاختبار والنظر إليه في ضوء العقل، وبميزانه المستقل، ونحن ملزمون بما تهتدي إليه عقولنا، وما ينتهي إليه تفكيرنا، ولهذا شن القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد في كل صورته، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفِينَا عَلَيْهِ ۖ أَبَاءَنَا أَوْ لُوكَانَ ۖ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة: (١٧٠)" (٢).

ودعا القرآن إلى تأسيس العقلية التي ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين، كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود، وأنكر على المشركين إتباعهم الظن في هذه القضايا الكبرى التي لا يكفي فيها الظن، بل لا بد فيها من العلم، أي العلم اليقيني، فقال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يونس: (٣٦)

وكذلك نطالع دعوة القرآن الكريم إلى إنشاء العقلية الراشدة التي ترفض

(١) تفسير المنار - محمد رشيد بن علي رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٠ م - (١١ / ٢٠٢)

(٢) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم - (١ / ٢٠)

الهوى والعاطفة، فالهوى يعمي ويصم، وإتباع العواطف قد يضل الإنسان عن الحق، ولا غرو أن جاء في الحديث الصحيح: « لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان»<sup>(١)</sup>، لأن انفعال الغضب يسد عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة فيظهر حكمه غير سليم، ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين: اتباع الظن وهوى الأنفس معاً، فقال في شأن أصنامهم التي اتخذوها آلهة: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ النجم: (٢٣). وقال تعالى لداود ناهياً له عن اتباع الهوى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص: (٢٦).

وفي مقابل هذه العقلية المتبعة، توجد عقلية أخرى مخالفة، لها مواصفاتها وخصائصها، وهي التي عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها، وصياغتها، وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة، وقد سماها الشيخ القرضاوي بالعقلية العلمية - وقد أحسن في هذه التسمية - فقال عنها: "والعقلية العلمية في نظر القرآن: هي التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد، أو التسليم المطلق لما عليه السلف المعظمون، ولا تقبل أن تقلد هؤلاء أو أولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه، ومن المقرر المعلوم أنه لا يمكن أن يزدهر العلم، وتتأصل جذوره، وتمتد فروعه، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيئ للعقول أن تفكر، وللافكار أن تتفتح، وللأراء أن تناقش، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية، وبعبارة أخرى: يعمل القرآن بدعوته القوية، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين العقلية العلمية المتحررة، التي لا ينهض علم إلا على عاتقها، فهو يرفض العقلية الخرافية، ويرفض العقلية المقلدة ويرفض العقلية المتخرصة ويرفض العقلية المتبعة للهوى"<sup>(٢)</sup>.

جاء الإسلام لإصلاح هذه الأوضاع الفاسدة التي كانت سائدة في

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)-محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي- دار إحياء التراث العربي-بيروت- تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون- باب لا يقضي القاضي وهو غضبان -ج ٣/ص ٦٢٠- حديث رقم: ١٣٣٤

(٢) مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم - (١ / ١٧)

المجتمعات، وتحرير الإنسان من الأغلال الجاثمة على عقله وفكره، وكانت مهمة القرآن هي العمل على إبطال القاعدة الخاطئة ﴿إِنَّا وَحَدَّثْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ الزخرف: (٢٢)، وتحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي، وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته على حرية الفكر واستقلال الإرادة، ليكمل بذلك عقله ويستقيم تفكيره وتتهذب قواه، فوجه القرآن الفكر إلى كل ما من شأنه أن يدعو إلى استعمال العقل والتدبر والتأمل حتى تزول تلك الحجب الكثيفة التي تحول بين العقل والرؤيا الصحيحة للأشياء، وليخلق أمة جديدة هي أمة القرآن العاقلة المفكرة الباحثة الدارسة التي تعلي من شأن العقل وتستخدمه في مختلف شؤونها، وتفتح أمامه آفاقاً غير محدودة لاستكناه حقائق الوجود في هذا العالم الكبير، ولقد اشتملت توجيهات القرآن العقلية على أصول ومبادئ عامة صلحت لأن تكون منهجاً فكرياً سليماً ومكنت هذه المبادئ والتوجيهات المسلمين من الاستفادة من تلك الدرّة الإلهية التي منحها الله للإنسان وهي: (العقل) فنمته وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التي خلق من أجلها، وطالب القرآن كل ذي عقل بالنظر في عوالم السموات والأرض وما فيهما من الدلائل الواضحة، واستنهض العقول، ووجه الأفهام، وأيقظ الحواس، ونبه المشاعر، بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: (٤)، النحل: (١٢)، الروم: (٢٤)، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ طه: (١٢٨، ٥٤) وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الرعد: (١٩)، الزمر: (٩).

وأنا موقنون بأن القرآن إضافة إلى تعدد إعجازاته، فإنه الكتاب السماوي الوحيد الذي خاطب العقل الإنساني والفكر البشري، وأن الله جلت قدرته قد ميز الإنسان وفضله عن سائر خلقه، بأن وهبه العقل للتدبر والتفكير والتأمل والتمحيص، فالقرآن الكريم في مجمل آياته يدعو إلى شحذ الهمم وتركيز البصيرة واستخدام العقل لتطوير منهجية حياة الإنسان.

### المطلب الثالث

#### التدبر والتفكير

#### **القسم الأول: معانٍ وحقائق:**

إن تدبر القرآن هو أرفع صور تلاوته وترتيبه التي جاءت نصوص القرآن

الكريم ببيان فضلها وثوابها، والتدبير هو الذي يساعد قارئ القرآن على النهيم من خيراته وفضائله.

قال ابن منظور في لسان العرب: "التدبير لغة: دبر الأمر وتدبره نظر في عاقبته، واستدبره رأى في عاقبته ما لم ير في صدره، وعرف الأمر تدبراً أي بآخره، والتدبير في الأمر أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبير: التفكير فيه، ويقال إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدى لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره والتدبير أن يتدبر الرجل أمره، ويدبره أي ينظر في عواقبه"<sup>(١)</sup>.

وجاء تعريفهما في دستور العلماء "التدبير: النظر في عواقب الأمور وهو قريب من الفكر، والتفاوت بينهما أن الفكر بصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبير بصرفه بالنظر في عواقب الأمور"<sup>(٢)</sup>.

وقال الميداني: "التدبير: هو النظر في دبر الأمور أي عواقبها وهو قريب من التفكير إلا أن التفكير تصرف بالنظر في الدليل، والتدبير تصرفه بالنظر في العواقب، فالتدبير: التفكير ومادته تدور حول أواخر الأمور وعواقبها، وهو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هنا نفهم أن التدبير هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميها البعيدة"<sup>(٣)</sup>.

وجاء تعريف التدبير والتفكير وحقيقتهما في كتاب التوقيف على مهمات التعاريف: "التدبير هو: التفكير باستخدام وسائل التفكير والتساؤل المنطقي للوصول إلى معان جديدة يحتملها النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية، وربط الجمل القرآنية ببعضها، وربط السور القرآنية ببعضها وإضفاء تساؤلات مختلفة حول هذا الربط أو ذلك. وعلى ذلك فحقيقة تدبير القرآن: أن يقرأ المسلم كتاب الله بتأمل وتفكير وعناية وحضور، فيتأمل في أخباره ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وأحكامه وآياته، وأن يعزم النية على العمل بما يؤمر به، وعن الانتهاء عما نهى عنه، وأن يتعظ بما

(١) لسان العرب- محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي -دار صادر -بيروت-الطبعة الأولى، مادة:

(دبر) ٢٧٣/٤

(٢) دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)- القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول

الأحمد نكري- دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - الطبعة: الأولى - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م- (١ / ١٩٤)

(٣) قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عز وجل- للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني- ط٢- دار القلم-

دمشق: ١٤٠٩ هـ، ص ١٠



فيه من المواعظ والأخبار، ويستحضر ما أخبر الله به عباده من أمور المعاد"<sup>(١)</sup>.  
وقيل في معنى التدبير: " هو الفهم لما يُتلى من القرآن، مع حضور القلب  
وخشوع الجوارح، والعمل بمقتضاه، ويكون ذلك بإطالة نظر القلب إلى معانيه،  
وجمع الفكر على فهمه وتعقله، وأن يشتغل القلب في التفكير في معنى ما يلفظه  
بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يتجاوزها إلى غيرها حتى يعرف  
مرادها"<sup>(٢)</sup>.

والمراد بالتدبير كما قال العلامة السعدي رحمه الله: "التأمل في معانيه،  
وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك من العمل والإتياع"<sup>(٣)</sup>.  
وهناك كلمات مرادفة للتدبير وتأتي في معناه، كما قال ابن القيم: " ويقربُ  
من معنى التدبُّر، التَّفَكُّرُ والتَّذَكُّرُ والتَّنَظُّرُ والتَّأَمُّلُ والاعتبارُ والاستبصارُ، وقد وردت  
هذه المعاني في القرآن في مواطن. وهذا يسمَّى تفكُّراً وتذكُّراً ونظراً وتأمُّلاً واعتباراً  
وتدبُّراً واستبصاراً، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيءٍ وتنفرد في آخر. ويسمَّى  
تفكُّراً، لأنه استعمالُ الفكرة في ذلك، وإحضارُها عنده. ويسمَّى تذكُّراً، لأنه إحضارُ  
للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذمَّه وغيبته عنه، ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا

مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١. ويسمَّى نظراً،  
لأنه التفاتٌ بالقلب إلى المنظور فيه. ويسمَّى تأمُّلاً، لأنه مراجعةٌ للنظر كرَّةً بعد  
كرَّةٍ، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه. ويسمَّى اعتباراً، وهو افتعالٌ من العبور، لأنه  
يَعْبُرُ منه إلى غيره، فَيَعْبُرُ من ذلك الذي قد فَكَّرَ فيه إلى معرفةٍ ثالثةٍ، وهي المقصود  
من الاعتبار، ولهذا يُسمَّى عبْرَةً، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ النازعات:  
٢٦، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ آل عمران: ١٣. ويسمَّى تدبُّراً،

(١) التوقيف على مهمات التعاريف-محمد عبد الرؤوف المناوي-دار الفكر المعاصر بيروت ، دمشق-

الطبعة الأولى، ١٤١٠-١٦٧/١-تحقيق: د. محمد رضوان الداية

(٢) أوراق الملتقى الثالث لجمعيات تحفيظ القرآن بالمملكة - (١٦ / ٢٩)

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان-عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي-المحقق: عبد

الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة-الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م-١٨٩/١-١٩٠

لأنه نظرَ في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه تدبرُ القول...<sup>(١)</sup>  
القسم الثاني: فوائد وثمرات التدبر:

دعا الله عزَّ وجلَّ عباده إلى التدبر فيما أنزله إليهم من آيات كتابه العزيز بصور متعددة، فبين أن هذا التدبر هو المقصود بإنزال القرآن، وأوجب تدبر كتابه العزيز بدلالة قوله: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ص: ٢٩، قال ابن كثير: " في هذه الآية بين الله أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها، وقال الحسن البصري: " والله! ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل"<sup>(٢)</sup>.

وأنكر القرآن على من أعرض عن تدبره كما في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون: ٦٨. وقال جل شأنه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ٨٢، جاء في تفسير الطبري قوله: " عن الضحاك قال: يتدبرون النظر فيه، ويتفكرون في حجه التي بينها لهم في تنزيله"<sup>(٣)</sup>.

وما أكثر الآيات القرآنية الداعية للتدبر والتفكر في آيات الله تعالى المسطورة والمنظورة فالنستمع في خشوع وتدبر لهذه الآيات البينات، قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٥، وقوله: ﴿ قُلِ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ① وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا

(١) مفتاح دار السعادة- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية-دار الكتب العلمية - بيروت - (١ : ١٨٢)

(٢) تفسير ابن كثير - ٦٤/٧

(٣) تفسير الطبري - (٧ / ٢٥٢)

من كل زوج بهيج ﴿٧﴾ بَصْرَةَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ ق: ٦- ٨، وقوله: ﴿٩﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿الغاشية: ١٧- ٢٠﴾، وقوله: ﴿٢٠﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿الذاريات: ٢١، ٢٠﴾، وقوله سبحانه: ﴿٢١﴾ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿الجاثية: ١٣﴾، وقوله: ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿الروم: ٢٣﴾. كل هذه الآيات وغيرها مما لا يحصى تدعو دعوة صريحة للتفكير والتدبر في آيات الله تعالى في جميع مجالات الحياة، فهل من معتبر: ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿القمر: ١٧﴾.

وبشر القرآن الكريم الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير ويتبعون منه ما يدل على الحق ويرشد إلى طريق العلم والقوة، ولم يكتف القرآن بهذا، بل ذم الغافلين، ونعى عليهم غفلتهم وإعراضهم عن الآيات الكونية التي يشاهدونها في كل لحظة وتطالعهم بدلائلها في كل أونة كما في قوله تعالى: ﴿٢٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿الحج: ٤٦﴾، وقوله: ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿الأعراف: ١٧٩﴾، وقوله: ﴿٢٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿يوسف: ١٠٥﴾.

وقد قال ابن القيم -رحمه الله- كلاماً طيباً في هذا المجال، قال: "ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلها، وتثُلُّ

في يده (تضع) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماء وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفاسد الأعمال ومصحاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه. <sup>(١)</sup>، وصدق رحمه الله، فإن التدبر في كتاب الله مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر.

وقال السعدي رحمه الله: "تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة" <sup>(٢)</sup>.

وقال سهل بن عبد الله: "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلام الله غير مخلوق ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة" <sup>(٣)</sup>.

### المبحث الثاني

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين-محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية- دار الكتاب

العربي - بيروت- الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣-تحقيق: محمد حامد الفقي مدارج السالكين ٤٥١/١

(٢) تفسير السعدي ١٨٩/١-١٩٠

(٣) مفاتيح تدبر القرآن-خالد بن عبد الكريم اللاحم-فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر-الرياض-

١٤٢٥هـ - (١ / ٤)

### غايات ومقاصد البحث العلمي في القرآن الكريم

#### المطلب الأول: تحقيق عبودية الخالق:

العبودية اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وتظهر أهمية العبادة وفضلها ومكانتها في أنها الغاية التي خلق الله لها الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، وبها أرسل الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦، وبتحقيقها يكمل المخلوق، وهي الصفة التي وصف الله بها ملائكته وأنبيائه، ونعت بها صفوة خلقه، ووصف بها النبي ﷺ في أكمل أحواله كحال الإسراء، فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الإسراء: ١، ولذلك فمن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه فهو أضل الخلق وأجهلهم، ولو نظرنا لوجدنا أن الدين كله داخل في العبادة، فهو يتضمن الذل والخضوع والعبادة في أصل معناها: الذل، وعبادة الله تشمل الذل والمحبة غايتهما، فإن الذل بلا محبة أو المحبة بلا ذل لا تسمى عبادة، والعبادة أمر اخُصَّ الله به، فلا يعبد غيره، فإن جنس المحبة والطاعة الإرضاء والإيتاء لله ورسوله، أما العبادة وما يناسبها فهي لله وحده.

والإخلاص لازم من لوازم العبودية، فلا بد للمسلم أن يخلص في عبادته لخالقه جل وعلا، وهذا ما أمرنا به سبحانه عندما قال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ البينة: ٥، وغيرها من الآيات، وجاء في حلية طالب العلم: " قال بعض العلماء: العلم صلاة السر، وعبادة القلب، وعليه فإن شرط العبادة إخلاص النية لله سبحانه وتعالى فإن فقد العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أخط المخالفات، ولا شيء يحطم العلم مثل الرياء، رياء شرك، أو رياء إخلاص، وعليه فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلماً لأغراض وأعراض، من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا

شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحمى"<sup>(١)</sup>.

وكذلك لا بد من الصدق في التوجه بالعبادة للخالق جل شأنه: بأن يبذل

المؤمن جهده في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة ١١٩، ولا بد كذلك من متابعة

الرسول ﷺ فيعبد العابد الله تعالى وفق ما شرع عز وجل لا بحسب ما يهوى

المخلوق ويبتدع، وهذا هو المقصود باتباع النبي المرسل من عند الله، فلا بد من

الإخلاص والصدق والمتابعة فإذا عُرِفَت هذه الأمور تبين لنا أن كل ما يضاد هذه

التعاريف فهو من العبودية للناس، فالرياء هو عبودية للناس، والشرك عبودية

للناس، وترك الأوامر واسخاط الرب مقابل رضى الناس عبودية للناس، وكل من

قدّم طاعة هواه على طاعة ربه فقد خرج عن مقتضى العبودية، وخالف المنهج

المستقيم، ولذلك قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن

أعطي رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»<sup>(٢)</sup>، والعبودية

لله تجمع وتتضمن المحبة والخوف والرجاء، فالعبد يحب ربه ويخاف عقابه ويرجو

رحمته وثوابه، والعبودية لله شرف للعبد وليست مذلة كما قال الشاعر:

ومما زادني شرفاً وتيهاً \*\*\* وكدت بأخمصى أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي \*\*\* وأن صيرت أحمد لي نبيا

### المطلب الثاني

#### بيان مظاهر قدرة الله تعالى

(١) حلية طالب العلم - بكر أبو زيد- مؤسسة قرطبة ، ط٣ ، ١٤٠٩ هـ - (١ / ٤)

(٢) الجامع الصحيح (صحيح البخاري) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله -

دار الشعب- القاهرة- الطبعة: الأولى ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧- كتاب بدء الوحي-- ج ٤ / ص ٤١، برقم: ٢٨٨٧

ومن غايات البحث العلمي التي قصد الله تعالى من خلال كتابه الكريم بيان وتوضيح مظاهر قدرته وعظمته في هذا الكون والتي لا تكاد تنقضي، فلو تتبعنا آيات الله تعالى في كتابه الكريم، لا نكاد نجد آية منها تخلو من مظهر من مظاهر عظمته وقدرته.

وجاء في عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن: " وفي القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من: السماوات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق ... إلى آخره، وإذا كانت هذه الآيات قد ذكرت تلك المفردات في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله في الخلق، استدلالاً على تفرد سبحانه بالربوبية والألوهية، وقياساً عليها أحقية البعث الذي أنكره الكفار، فإنها مع ذلك قد جاءت في أسلوب وعبرة تفتح أمام العقل البشري آفاقاً واسعة للتفكير في دلالاتها عبر عصوره المتعاقبة من بعد نزول القرآن، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به"<sup>(١)</sup>.

وقال الأستاذ العلامة: وهبة الزحيلي: " ومن المعلوم أن إنزال القرآن الكريم هو أول مظاهر قدرة الله وفضله وتوحيده. والمظهر الثاني: أن الله تعالى هو الحاكم المطلق على الناس بالموت، فهو الذي يقبض الأرواح حين انتهاء آجال أصحابها، وهي الوفاة الكبرى، إن في ذلك التوفي التام، وإرسال الروح مرة أخرى لعلامات باهرة على قدرة الله ووحديته، من قوم يتفكرون ويتأملون في ذلك..."<sup>(٢)</sup>. ولما كانت هذه المظاهر لا نهاية لها ولا حدود فسنكتفي بذكر نماذج لها فقط

للدلالة عليها، ففي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الرعد: ٣ . قال فيها صاحب التفسير القرآني: " بيان لمظاهر قدرة الله في تلك الآيات الكونية المفصلة، فهو سبحانه: ﴿ مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أي بسطها وذلها، ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا ﴾ أي جبالاً راسية، ثابتة، مستقرة، كما ترسو السفن على المرافئ الآمنة، ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أي

(١) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم - محمد السيد - (١ / ٩٩)

(٢) التفسير الوسيط - وهبة بن مصطفى الزحيلي - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٤٢٢ - (٣ / ٢٢٤٣)

وأجرى في هذه الأرض التي بسطها أنهاراً، ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي وجعل من كل ثمرة زوجين اثنين، ذكراً وأنثى.. فالثمرة - أي ثمرة - لا تكون إلا بالتقاء الذكر والأنثى، على أية صورة من صور الالتقاء، سواء في ذلك عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان، فكل مولود هو ثمرة هذا اللقاء، كل ثمرة هي المولود الذي تولد من الذكر والأنثى! ﴿ يُعْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ ﴾ أي يلبس الليل النهار، ويجعله غشاء له، يجلله، ويغطيه، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ففي كل هذا، آيات ودلائل على وجود الخالق، وعلى قدرته وعلمه .. ولكن هذه الآيات لا تنكشف إلا لمن وجه إليها بصره، وأعمل فيها فكره .. أما من أعرض عنها، وأغلق عقله وقلبه دونها، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء، لا تنطق بشيء، ولا تحدث عن شيء! (١)

وفي قوله سبحانه: ﴿ فَكَايِنٌ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَدِلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ الحج: (٤٥) ، قال الجزائري في أيسر التفاسير: " ... من هداية الآيات: (١) تكذيب الرسل والدعاة إلى الحق والخير سنة مطردة في البشر لها عواملها من أبرزها التقليد والمحافظه على المنافع المادية، وظلمات القلب الناشئة عن الشرك والمعاصي . (٢) مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك الأمم والشعوب الظالمة بعد الإمهال والإعذار " (٢)

### المطلب الثالث

#### بيان مكانة العلم والعلماء

لقد رفع الله تعالى شأن العلم وأهله، وبيّن مكانتهم، ورفع منزلتهم، فقال:

(١) التفسير القرآني للقرآن - الدكتور/ عبد الكريم الخطيب- دار الفكر العربي - القاهرة - ٦٧ / ٧

(٢) أيسر التفاسير-للجزائري- مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية- ط٥،

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م- (٣ / ١١)



سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة: ١١. وعظم الله تعالى شأن العلم وحث على طلبه والسعي إليه كما في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَابَتٌ يُبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت: ٤٩، ولم يأمر الله نبيه ﷺ بالاستزادة من شيء إلا من العلم، فقال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤ وقول الرسول ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»<sup>(١)</sup>، وقوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»<sup>(٢)</sup> وما ذاك إلا لما للعلم من أثر في حياة البشر.

ولقد منع الله المساواة بين العالم والجاهل، لما يختص به العالم من فضيلة العلم ونور المعرفة، فقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.

ولقد جاءت نصوص الكتاب والسنة منوّهة بفضل العلم وأهله، والحث على تعلمه وكسبه، وشرف الله تعالى هذه الأمة بأن جعلها أمة العلم والعمل معاً، تمييزاً لها عن أمم الظلم والجهل، وجاءت الصيحة الأولى المدوية التي أطلقها الإسلام في أنحاء المعمورة، لتنوه بقيمة العلم والعلماء، وتسمو بقدره، وتجعل أول لبنة في بناء الأفراد والشعوب، وكيان الأمم القراءة والكتابة.

ورفع الله تعالى منزلة العلماء، وجعلهم أهل خشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨، فالخشية: هي التي تحول بين العبد وبين معصية الله، وتدعوه إلى طاعته والسعي في مرضاته. ففي الدر المنثور: "كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله"<sup>(٣)</sup>، وروى علي بن أبي طلحة عن

(١) صحيح مسلم- أبو الحسين مسلم بن الحجاج- دار الجيل بيروت- باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن-

ج ٨ / ص ٧١، رقم: ٧٠٢٨

(٢) سنن ابن ماجه- ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني- مكتبة أبي المعاطي- المجلد الأول-

برقم: ٢٢٤

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي - (١٢ / ٢٨٠)

ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾** قال: الذين علموا أن الله على كل شيء قدير، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم، وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علماً<sup>(١)</sup>.

وقرن الله تعالى شهادة العلماء بشهادته تعالى وشهادة الملائكة فقال: **﴿**

**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾** آل عمران: ١٨، وقيل في سبب نزولها أنها أعظم شهادة في كتاب الله، فقد جاء في تفسير القرطبي: " قال الكلبي: لما ظهر رسول ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي عرفاه بالصفة والنعمة، فقالا له: أنت محمد؟ قال (نعم)، قالوا: وأنت أحمد؟ قال: (نعم). قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها أمانا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله: (سلاني). فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه **﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**

**وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾** فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ " <sup>(٢)</sup>. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» <sup>(٣)</sup>.

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخرزجي شمس الدين القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-دار الكتب المصرية - القاهرة- الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م - (١٤ / ٣٤١)

(٢) معالم التنزيل (تفسير البيهقي)-محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البيهقي-المحقق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش-دار طيبة للنشر والتوزيع-الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - (٤ / ٤١)

(٣) سنن أبي داود- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- دار الكتاب العربي - بيروت-باب الحث على طلب العلم- برقم: ٣٦٤٣، سنن الترمذي- باب فضل النفقة على العادة- برقم: ٢٦٨٢

وبالعلم تبنى الأمجاد، وتشيد الحضارات، وتُسود الشعوب، بل لا يستطيع المسلم أن يحقق العبودية الخالصة لله على وفق شرعه، فضلاً عن أن يبني نفسه كما أراد الله أو يقدم لمجتمعه خيراً، أو لأمة عزاً ومجداً ونصراً إلا بالعلم. والعلماء هم الأئمة الثقات، والأعلامُ الهداة، مثلهم في الأرض كمثل النجوم يُهتدى بها، قال ﷺ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»<sup>(١)</sup>.

ومن آفات العلم وأسباب محق البركة عنه أن تُطلب به الرئاسة على الخلق، والتعظيم عليهم، وأن يريد طالبه بعلمه انقياد الناس له، فيُظهر لهم زيادة علمه على العلماء، ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار- عياداً بالله- فقد قال المصطفى ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»<sup>(٢)</sup>. وفي حلية طالب العلم: " عن سفيان رحمه الله تعالى أنه قال: كنت أوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة، سلبته"<sup>(٣)</sup>.

هذا غييض من فييض في فضل ومكانة العلم والعلماء تقصر المجلدات والمؤلفات الضخام عن احتوائها، قصدت بذلك لفت الأنظار والتوجه نحو هذا المعين الذي لا ينضب أبداً، وأن مقصد الشريعة في دعوتها إلى العلم بمعناه الشامل واضح جداً باستقراء نصوص القرآن والسنة، وتوجيه العقل البشري إلى مظاهر الكون لمعرفة قوانينها وتوجيهه إلى أحداث التاريخ ومصائر الأمم للوصول إلى سنن المجتمع البشري، وإلى آفاق النفس للاطلاع على سنن أخلاقها ومختلف ظواهرها.

(١) مسند أحمد بن حنبل- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني-المحقق: السيد أبو المعاطي النوري- عالم الكتب - بيروت-الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م - المجلد الثالث - برقم: ١٢٦٠٠ (١٢٦٢٧)

(٢) سنن الترمذي- باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا - برقم: ٢٦٥٤

(٣) حلية طالب العلم - (١ / ٤)

## الخاتمة

وبعد أن وقفنا متأملين في دعوة القرآن الكريم الملحة للعلم والتعلم والفكر والتفكير والتدبر في آياته الكريمات نقول: من أحب أن يكون للأنبياء وارثاً وفي مزارعهم حارثاً فليتعلم العلم النافع ففي الحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء» وليحضر مجالس العلماء فإنها رياض الجنة، وأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، وبذل الهمة في تحصيل العلوم، وتطهير القلب من كل دنس، وغل، وحسد، وخلق ذميم، وسوء عقيدة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا الإسراء: (٣٦)﴾، فبذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقائقه. وليحذر الأغراض الدنيوية من تحصيل الرئاسة والجاه والمال، والتصدر في المجالس فيحبط العمل، وقد استعاذ النبي ﷺ، من علم لا ينفع، وتوسل بالعلم الذي هو أعظم العبادات، وعلى المشتغلين بالعلم سلوك طريق سلفهم في التواضع والحلم والصبر على الأذى ذاكرين قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان: (١٧).